الباب
الذي امتنع غلقه ...

... قصة بقلم ماري دو رنس ريتهارت ، لعلها أن تكون أقرب الى الواقع الذي منها الى الخيال العلمي ... أهديها الى الآنسة الجديدة من ثيابت الأوم ، اللاتي لا تكاد تستقر بين الحياة الزوجية حتى تنتهي سعادتهن سحب قاتمة من غيوم الشك والخوف ...

وكان شبح حماتها يكمن وراء الباب الكبير ، أما الآن فقد اختفى ...

حدث هذا أول ما حدث عند ما كانت لويس في المنزل ، وكان روي زوجها في عمله ومابل الخادمة تجادل بعض الصبية عند الباب الخارجي في فترة راحتها المسائية — ولم تكن لويس قد لاحظت شيئاً من قبل ، أو لعلها لم تكن قد تنبهت إليه جيداً ، ذلك أنها لا تكاد تغلق باب مسز اليسون حتى يعود فينفتح إن عاجلاً أو آجلاً ...

وفي ذات ليلة صارحت لويس زوجها بكل شيء ، وقد كانت حذرة في حديثها كل الحذر ، فانها تعلم مبلغ ما يصيب روي من الحزن والألم عند ما يتذكر أمه ... فقالت له « أريد يا روي أن تلقي نظرة على باب حجرة أمك » فقابل روي عبارتها هذه بتجهم ، وقال « وما أمر هذا الباب ؟ ... »

لقد امتنع غلقه ..

— .. هذا سخف . فما الذي يمكن أن يحدث له ؟ ..

— لست أعلم ، وإنما هو مفتوح كل الوقت ، لا نكاد نغلقه حتى يعود فينفتح ..

— هذا أمر يحدث لكل الأبواب ...

أخذ روي حديث لويس على أنه بقايا ضغائن قديمة لم يقبرها الموت ، وكل ما هنالك محاولة خبيثة من جانب زوجته لكي تغلق باب مسز أليسون الى الأبد ، كأنما حجرة الأم كافية لأن تثير الضغائن ..

— وقد أرادت لويس أن تدافع عن نفسها فقالت لروي « هذا غير صحيح ... فأنت تعلم أني كنت مخلصة لها ، ومن أجل هذا أسألك وأكرر السؤال ، لماذا يا عزيزي ، وقد كانت هذه معاملتي لأمك ، تفعل هي بي ما تفعله الآن ؟ ... !!

— ما الذي تفعله ؟ ..

... — تقف هنا ... منذ عشر سنوات ، من ذلك اليوم الذي جمعنا فيه رباط الزواج ، وهي واقفة هنا لا تترك هذا المكان ، كانت تعني وكنت أنت تظنها قد عدلت عن المركة ... كنت أعمى بعد أن تمام أنت .. كانت ...

ولكن روي قاطعها في قسوة ، وخرج غاضباً إلى حيث لا يسمع شكوى زوج ترزق في الحياة من أم ترقد في أطباق الثرى ...

أما لويس فقد ظلت جالسة تفكر في الماضي البعيد الذي انقضى ، في هذه السنوات العشر العراض التي حفلت بنظرات البغض وتنفذ كالسهام من حجرة مسز أليسون ، تلك المرأة التي اجتمع فيها الحقد فما لم يجتمع في غيرها ، حتى لقد كانت وهي المعطلة للحركة — كما كانوا يزعمون — تتسرق أخبار المنزل وتحيط بكل صغيرة وكبيرة فلا يفوتها شيء من أحداث المنزل الكبير ... أما هي فقد أخذت تروض نفسها على تيار هذا كله ما دام روي معها بجانبها ، ومع هذا فإنه حتى علاقتها بروي قد بدأت تفتر وكأنما كانت هنالك أذن ماكرة تصغي الى كل شيء ، حتى الى خفقات القلوب الخافقة بهوى الشباب ... كانت هذه المرأة العجوز راقدة في سريرها تسمع وتنظر ، ولئن كانت النظرات تقتل فما أحراها لنظرة من نظرات هذه المرأة البغيضة كافية لأن تقضي على لويس وأم عبابها لا تزال تتفتح ...

كانت لويس جالسة إلى المنضدة تفكر في كل هذا .. أجل ، إن حماتها كانت تكرهها بهذه الكراهية التي تمثل غيرة امرأة عجوز قانية من امرأة فاتنة .. كانت تكرهها لأن روي يحبها .. منذ ذلك اليوم الذي عادت فيه مع روي من حفل زواجهما ، صادفتها هذه المرأة كعقبة كأداء في سبيل حياتها وسعادتها .. وإنها لتذكر جيداً كيف قابلت المرأة العجوز زوجة ابنها لأول مرة بابتسامة لن تفسدها لويس ما بقي لها حياة .. دعتهما مسز أليسون إلى حجرة الاستقبال ليتناولا الشاي لأول مرة وكان أول ما قالته تحية لها . « إني الآن امرأة عجوز ، وإني طبعاً لا أهتم إني فقدت ابناً بل كسبت ابنة — ولكني من الآن لن أصبح سيدة المنزل »

وقد كان تصريح مسز أليسون مفاجأة لروي غير منتظرة فأبتدرها قائلاً « ولماذا يا أماه

لا ندع الأمور تجري كما كانت ، وأنتِ لا هلك تعلمين أن لو أصغر من أن تتولى ادارة منزل كبير . » فأجابت مسز اليسون « لا يمكن أن تجري الأمور كما كانت يا بني العزيز ... فأنت الآن متزوج .. » ثم كان أن أصرّت مسز اليسون على أن تأخذ لويس مكانها من الطاولة ، كل هذا ونار الحقد تتأجج في نفسها وتنبعث من فمها في صورة ابتسامة .. يالها من ابتسامة ! ..

... صور الماضي تتلاحق أمام لويس وهي جالسة عند الطاولة تفكر .. « فهذا روي قد أثمله الحب والفرح فحمل لويس على كتفيه وأخذ يدورها في أرجاء الغرفة ، ثم دخل حجرته الخاصة وهو يقول « وأخيراً أنت معي يا دوريتي .. وفي حجرتي » .. وها هي هذه الفتاة الخجول تبدأ في خلع ملابسها وهي تتردد .. وروي يبصرها وهو جالس في الطرف الآخر من السرير يصفق طجلها ويضحك من تردده ... ثم يتبادر إلى سمعها صوت ارتطام جسم ينبعث من الدهليز الطويل في هدوء الليل ، فيخرجان سريعاً من الحجرة ... فماذا يصادفهما ؟ رأيا مسز اليسون ملقاة على الأرض فاقدة النطق ...

أجل كانت هذه ليلتها الأولى ... وهذا روي يحمل أمه فزعاً مضطرباً إلى حجرتها وتجمع الخدم وحضر الأطباء واضطرب كل شيء ... ولما أرادت لويس أن تتبع روي أزاحها بيده جانباً كأنه هو لم يعرفها من قبل .. فانسلت لويس وحدها الى حجرة الاستقبال الكبرى .. كان الجو بارداً وكانت تشعر بقشعريرة ..

وهي الآن تشعر بقشعريرة . لقد طال جلوسها ولا بد أن تعد الطعام بيدها لآن مايل قد ذهبت إلى منزلها ، ومع ذلك ظلت جالسة تفكر . قد يكون روي على حق وتكون هي قد أصيبت بجنون .. يالها من سنوات عشر قضتها في ذلك المنزل الكبير الذي أفلس فيما بعد من المال وتاهت هي متاعب الحياة فيه ، فكانت تغسل وتحمل الأطباق وتعد الطعام بيدها وكانت فوق ذلك كله تقوم بخدمة امرأة عجوز تكرهها ، لا لشيء إلا لأن روي يحبها ، عشرة أعوام تمضي وهي تعمل جاهدة على إسعاد روي ، والآن عندما بدأ الخلاص يقترب ؟ ...

وفجأة تنبهت لويس إلى صعود روي درجات السلم فقامت مسرعة وما إن رآها روي حتى ابتدرها قائلاً « اسمعي يا لو لقد أحكمت غلق الباب بيدي الآن .. »

— وهل كان مفتوحاً ؟ !

— أجل ! ولماذا ؟

— لأنني قد أغلقته بيدي قبل أن تنزل ...

نظر إليها روي ثم استدار بسخرية لاذعة قائلاً لها . « انني على موعد الآن .. وأمامي

عملي الذي يجب أن أوليه عنايتي ، وليس لي من الوقت ما أضيعه في ترهات عجائز ... »

وبعد خروج روي ، صعدت لويس بهدوء إلى غرفة صمز أليسون لتتأكد .. فألفت الباب مفتوحاً .. فكاد أن يغمى عليها ولكنها تمالكت وأمسكت الباب بيدها وظلت تنظر إلى فراغ الحجرة الملتحف بالظلام وهي تقول . « اسمعي ! » ماذا يجديك من هذا كله ؟ .. ألم يكفك أن روي كان في يدك كل هذه المدة ، حتى بعد زواجي به كان دائماً في يدك ... لا تعتقدي إني كنت أجهل ، لقد كنت أعلم كل شيء .. ألا تتركينه الآن ؟ . إني لا أسأل هذا من أجلي ، ألا تريدين أن يكون سعيداً ؟ ... » — وانتظرت لويس جواباً لهذه المفاجأة فهي قد مثلت من قبل أنه في مثل هذه الأحوال تتردد أصوات مبهمة وتنبعث أضواء مختلفة ، ولكن هيئاً من هذا لم يحدث ، وهي نفسها لم تكن تعتقد بشيء من هذه الخرافات فكيف لها أن تعلل ما يدور حولها ، وإذا كانت مخطئة أو واهمة فكيف السبيل إلى التخلص من هذا الوهم ؟ ...

اكتفت لويس بعد ذلك بإحكام غلق الباب ، ثم صعدت الى المطبخ لتعد طعام العشاء لروي . ولما عاد روي كان يبدو عليه النشاط واختفى عن وجهه ذلك التجهم وتلك الصلابة التي قابل بها حديث لويس السابق ، وكان أول ما فعله أن وضع يده على كتف لويس وقال لها « آسف يا لويس فتعبن متعبا الأعصاب على ما أظن ولا بد من ذهابنا إلى السينما ... »

وفي خلال عرض الفيلم غشيت روي اغفاءة فنام — وكانت لويس تلاحظه في نومه وقد ملأ الخوف قلبها ... كم تغير روي في خلال هذه الأسابيع الأخيرة حتى لقد بدأ كرجل متعب ، كرجل بدأت حيويته تنضب ، كرجل مريض .. انتفضت لويس لهذا الخاطر الأخير وانتهى الفيلم فاستيقظ روي ولم يكن يدري متى نام ...

وعادا إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل فوجدا الباب مفتوحاً ... فنظر روي الى لويس ضاحكاً وقال لها « أجل يا لو إن الباب مفتوح مع أني أنعم أني أغلقته بيدي .. اعتذاراتي لك يا لو ، إن هذا الباب يفتح حقاً » . وكان روي ينظر إلى الباب وهو يغلقه بنعم مبتسم فقد أفادته الاغفاءة فقابل الأمر مرحاً وعند ما استلقت لويس في سريرها قبلها روي وأطفأ النور ...

لكن الباب عاد فانفتح .. وسمعت لويس صريره من خلال الدهاليز الطويل فجلست وعيناها تمتلئان رعباً وخشية ... وقالت « لا .. لا يا روي أرجوك »

— ماذا جرى لك ، ألا استطيع أن أنام براحة

— ... الباب يفتح مرة أخرى ... إنها هنا ، أظنها قد ذهبت ، إنها لم تذهب ، إنها في المنزل لم تتركه أبداً ..

فلم يكن من روي إلا أن ترك الحجرة لويس وذهب هو لينام في حجرة أمه . وفي هذه الليلة لم تنم لويس دقيقة واحدة . أحست بمابل وهي عائدة في منتصف الليل تتحسس طريقها في حذر لكي لا تنبه أحداً إلى وصولها متأخرة . وبين الساعة الثالثة والرابعة سمعت بائع اللبن بجواره وأحست به وهو يفرغ اللبن من الوعاء ، ثم وهو يذهب إلى منزل آخر ...

وفي الصباح كان يبدو على روي الهزال وكان يسعل فأشار هذا على لويس وقالت له «انك مريض» فأجاب « ان هذا حال كل زوج تخرجه زوجته من حجرته في الليل».

ولكنه أضاف قائلاً « لا يهمك هذا كثيراً ... اللهم اني أريد دعابك الى جهة ما بعيدة عن هذا المنزل للاستجمام فان رحلة أيام في مكان هادئ قد تذهب بما أصاب أعصابك من الاضطراب ..»

ولكن لويس رفضت قائلة لن أذهب قبل أن تبرأ من هذا البرد ... اني قلت أفكر طوال الليل وأتساءل هل قد فقدت عقلي ! .. »

وعند ما هم روي بالخروج بعد طعام الافطار كان يسعل بشدة .

وفي الساعة الحادية عشرة حضر نجار بعث به روي لكي يصلح ما بباب من ألبسون من عطب إن كان هنالك ثمة عطب ... وقد ظل النجار مدة طويلة يعمل في الباب ما يخطر له من ضروب الاصلاح ، وفي النهاية أشار الى متانة الباب وأحكام غلقه بحيث يصعب فتحه . وما أن فرغ النجار حتى نظرت لويس إلى نفسها في مرآة الدهليز الكبرى ، فاذا رأت ؟ . رأت عينين متعبتين فاقدتي الحياة وشعر رأسها الطويل قد بدأ يتهدل وانبثت الشيب فيه . وقد أخبرت لويس خادمتها بذلك فكان جواب الخادمة أن على لويس أن تراعي صحتها وتعني براحتها ، إذ هنالك رباطاً من المحبة وثيقاً يربط لويس بخادمتها ، فقد ظلتا سوياً في جحيم عشرة أعوام ، كانا خلالها عبدين لحرس صغير تقوده امرأة عجوز ، كلاهما سعدا درجات السلم وحملا الاطباق وأحضرا الطعام وغسلا الثياب وكلاهما اشتركا في حياة الخوف والشك طوال عشر سنوات ...

— ... ماذا كنت أفعل لولاك يا مابل ؟ ..

— إذ كل شيء على ما يرام يا سيدتي ..

— أجل كل شيء على ما يرام يا مابل . وطفقت لويس ترد هذه العبارة . لكن لم

يكن كل شيء على ما يرام ، لأن الباب قد فتح . . .

* * *

بعد صامتين من هذا كانت لويس تجلس أمام رجل يتصت إليها برجه هادىء كريم . .

— أجل ، لقد فهمت ، ولكن منذ متى لاحظت أمر الباب ؟ . .

— عند ما عدت من جنازة مسز أليسون عماتي ، ذهبت الى حجرتها وأقفلت نوافذها وقد كانت مابل الخادمة قد رتبت كل شيء ، وعند ما خرجت أغلقت الباب ، وأنا واثقة من ذلك ، لأنني عدت ثانية وتوثقت من غلق الباب . . .

— ولماذا أردت التأكد من غلق الباب ؟ . .

— لأنني كنت أريد أن يكون الباب مقفلاً . لم أكن أرغب في أن أرى الحجرة مرة أخرى ، فقد قاسيت منها الكثير ، كانت مثار ازعاج لي ، فكنت أريد أن أنسى الحجرة .

— ثم ماذا . .

— . . بعد هذا بثلاث ساعات كان الباب مفتوحاً لآخره . .

— ولماذا كنت تريدين نسيان الحجرة ، الآن مسز أليسون كانت مريضة لسنين طويلة وكانت لذلك مبعث اضطراب وقلق ؟ . .

— . . . أجل كان هذا بعض السبب كما أظن ، فقد ذهب شبابنا أنا — وروي ، فأنا الآن في سن الثلاثين ، ولم نخلف ولداً ، فلم يكن هنالك أمامنا غير البؤس ومراقبة الأطباء والدواء . .

— كان هذا كما تقولين بعض السبب . وماذا كان البعض الآخر ؟ . .

— كانت مسز أليسون تملىء غيرةً مني . . في الليلة الأولى من زواجنا أصيبت بنوبة في قلبها . .

— هل تظنين أنها كانت نوبة حقيقية ؟ . .

— لست أعلم ولم يكن من الممكن لي أن أعلم أبداً . .

— . . لقد كنت تكرهينها إلى حدٍّ بعيد . أليس كذلك ؟ . .

— كلاّ . . لست أعلم ، لقد كنت دائماً أخاف منها فقد كانت تحاول أن توقع بيني وبين زوجي . .

— . . . وفيما يختص بالباب أواثقة أنت من أنه يفتح أم أنك فقط تخشين أن يفتح ؟ . . أتفهمين ماذا أعني ؟ . .

— لست واهمة في ذلك فلقد رآه روي ورأته مابل الخادمة . .

— . . وماذا تستنتجين من كل هذا ؟ . .

— . . . أعتقد أن سر أليسون عادت ثانية من أجل روي . . . وأنا أخشى أن تأخذه مني ، ومن أجل هـذا أنا هنا لأعرف وجه الحق منك . ولكنك لم تعرف هذه المرأة . . إنها قادرة على ذلك . . وروي الآن ليس في حالة طيبة . . إنه ليس على ما يرام منذ موتها .

وفجأة أغرورقت عينا لويس بالدموع ودفنت وجهها في منديلها . . وقالت « إني أعتقد في نفسي الجنون . . . لا تعتقد إنني لا أقدر صدى هذه الترهات عند سامعها . لكنني أشعر بوجود المرأة في المنزل ، في حجرتي ، في كل مكان . . . »

مال الطبيب بظهره في كرسيه وقال في حدوء . . لا . . ليس بك جنون . . وإنما يستحسن انتقالك من منزلك هـذا إلى بقعة أخرى ، ولو إلى حين ، فإن هذا قد يكون أبعث لك على الاطمئنان »

— لكن روي لن يقبل أن يترك المنزل الذي فيه ولد وظل طوال حياته

— أفضل أن أتحدث في هذا إلى زوجك . . والآن أوصيك بأن تشتري في طريقك قفلاً لتوصدي به باب الحجرة وتحاولي النوم الهادىء . . وثقي أنك سليمة وتحتاجين الى بعض الراحة فلا تخشي شيئاً . . .

* * *

في طريقها الى المنزل ، ابتاعت قفلاً ، ووصلته هي ومابل في باب الحجرة قبل حضور روي .

ولكن روي لم ينتبه الى القفل ، فقد عاد أصرأ مما كان وقد تفاقم مرضه . وكان نومه في هذه الليلة نوماً مضطرباً . أما لويس فلم تنم دقيقة واحدة — لقد كانت تلقه على روي وكان يستولي عليها شعور بأن في الحجرة شخصاً قوياً جداً يريد اختطافه منها . وفي فترة أغفت فيها صمال روي وتقلب كثيراً في نومه ، أخذت لويس توجه حديثها إلى الشخص القوي بصوت مرتفع :

. . . لا تستطيعين فعل هذا . ليس في مقدورك أن تأخذيه مني . إنه ملكي أنا . انه لا يزال صغيراً ، فلماذا لا تتركيه ؟

ثم وضعت لويس يدها على رأس روي فاذا به يلتهب من الحرارة ، فانتفضت واقفة في وسط الحجرة المظلمة وقد أحست الاحساس أن هناك صراعاً بين المرأة الميتة وبينها .

صراعاً بين الخير والشر ، بين الحياة والممات ، فكان عليها أن تقاوم . « إنه لن يموت ، انه سيحيا أتسمعين هذا ؟ .. »

وفي الصباح إستدعت الطبيب فإذا بروي قد أصيب بالتهاب رئوي وأمر الطبيب أن يعالج روي في المستشفى ..

ومرت أيام عصيبة كان روي في حالة بلغت منتهى الخطورة وبلغ بجسمه الهزال مبلغاً كبيراً ، وكان وجهه يبدو غريباً أقرب إلى وجوه الموتى منه الى وجوه الأحياء .. وكانت لويس حجرة أخرى بجوار حجرة روي ولكنها لم تكن تستعملها ، لم ترد أن تترك روي أبداً لأنها كانت تخشى عليه من أمه التي ماتت . . أجل ، فلقد رأوها ذات مرة تبحث في إحدى أركان الغرفة المظلمة وكأنما هي تتبع شخصاً معيناً . وكان يحدث أحياناً أن تنفرد قليلاً في كرسيها ، لكنها لا تلبث أن تثب فزعاً وتطوف بأرجاء الحجرة المظلمة باحثة عن شيء ... كانت الممرضات تلاحظن هذا كله ، فكن يقلن فيما بينهن : هذه المرأة تتساق إلى حتفها ، فهي تخشى أن تنام ...

وذات ليلة لاحظت إحدى الممرضات لويس وهي تحادث روي ولم يكن من المعقول أن يسمعها في هذيانه كانت تقول له « عليك يا عزيزي أن تنساها انها لا تحتاج إليك ، أما أنا فأحتاج إليك » . وقد أخذتها الممرضة من يدها ونصحتها بالنوم قليلاً حتى لا تتحطم أعصابها .. ولكن لويس لم تنم . بل ظلت تبحث في أركان الحجرة المظلمة ، وبخاصة في الركن المواجه لروي ...

وفي الليلة التي بلغت فيها حالة روي أشدها ، لم يشاهدها أحد تسير في أرجاء الغرفة . فلقد خرجت في الظلام الدامس من الباب الخلفي للمستشفى ، وسارت كما يسير الحالم .. لم تذهب بعربة ، بل سارت على رجليها تتحسس طريقها ... إلى المنزل .

فتحت الباب ثم دلفت في الظلام . لم تحاول أن تنير المنزل ، ولماذا تنيره .. إنها تعرف المنزل جيداً وتستطيع السير في الظلام .. كان كل شيء في المنزل يكسوه التراب وبدا المنزل موحشاً وحشة القبور .. وصلت لويس إلى الطابق الثاني ، وكان الدهليز الطويل يمتد أمامها وقد أضيء بنور خافت ينبعث من الطريق . وفي نهاية الدهليز رأت لويس الباب المغلق بالقفل مفتوحاً . لم تكن وحيدة في المنزل ، كان هناك وجهاً يبدو من الباب دقيقاً صغيراً كذلك الوجه الذي كانت تبدو به مسز أليسون في ليلة زفافها وهي تقول « لا شيء يمكن أن يكون الآن كما كان يا روي ، إنك متزوج الآن » ...

كانت لويس ترتعش رعباً . ولكنها تمالكت وأخذت تحدث الشبح في ذلك الظلام

قائلة .. « ليس في مقدورك يا سر أليسون أن تفعل شيئاً ... لقد انتهى كل شيء .. انقضى كل شيء .. »

.. كان عليها أن تفعل شيئاً . وكانت تعلم أن من الواجب أن تفعله حالاً .. لم يعد الأمر صراعاً وإنما أصبح سباقاً ، سباق الزمن . لقد جمعت لويس ما استطاعت من الأخشاب ثم ألقت فوقها كميات كبيرة من البترول وفتحت النوافذ ... ثم أمسكت بعود ثقاب وألقته بين الأخشاب . . وأخذت تعدو ، حتى إذا وصلت الى القاعة السفلى نظرت الى السلم ودرجاته وقالت :

« آمل أن تجدي سلاماً . لم أكرهك أبداً أبداً »

ثم خرجت بهدوء . كانت النيران خلفها تتأجج ولكنها لم تنظر وراءها ... كل شيء كان هادئاً في الطريق المظلم ، ولم يرها أحد وهي تدخل المستشفى قبيل الفجر في تلك الساعة التي تحققت فيها حركة المستشفى وسكون كل شيء حتى تأوهات المرضى ... وعندما وصلت لويس الى حجرتها شعرت بما فعلت وكاد أن يغمى عليها لولا انها تمالكت ... ثم دخلت حجرة روي فألفته أحسن قليلاً ، كانت عيناه مغمضتين ، ولكن السحنة الرهيبة ذهبت عن وجهه . وكانت لويس مضطربة من فعلتها ، كانت تردد « لقد ارتكبت جريمة » لقد « قتلت أم روي » وعندما وضعت يدها على رأس روي تحققت قائلة « كان علي أن أفعل هذا يا عزيزي . كان علي أن أحطمها » .

كانت هذه آخر عبارة نطقت بها لويس قبيل أن يغمى عليها ، وقد حطمتها الممرضة ورأتها وهي تسقط فحملتها الى سريرها .

ظلت لويس في سريرها عدة أيام . وكانت تنام في فترات متقطعة من الليل والنهار ، ولم يكن هناك ما يبدو لها من الحقائق سوى أن روي يتحسن ، ثم بدأ تفكيرها يتحسن قليلاً ، ذلك التفكير الذي ظل نهبة الاضطراب الشديد فترة طويلة من الزمن .

وفي ذات صباح استيقظت فرأت بجانب سريرها الطبيب النفساني الذي ذهبت لاستشارته من قبل . كان الرجل يبتسم لها وكان يملؤها الغرور بأنها أمام القاضي ، القاضي الطيب القلب ، الذي سيحكم على فعلتها ، فإما ردها الى الأمل أو أطاح بها الى اليأس .

— أعتقد أنك عرفت ماذا فعلت أنا .

— ما الذي فعلته ؟

— لقد أحرقت المنزل .

نظر إليها الطبيب وقد فاجأته المريضة ولكنه ما لبث أن ابتسم ثم قال لها « حسناً .. حسناً .. »

— .. أجل ، كان عليّ أن أفعل هذا .. فقد كانت المرأة هنالك ..

فقام الطبيب الطبيب ثم أمسك بيد لويس ونظر الى أظفارها المحققة والى آثار عشر سنوات من الذل والخوف وقال لها بهدوء :

« لويس .. هل كنت تعرفين أن هذا الباب الذي استعصى غلقه لم يكن إلا رمزاً لخصب. عند ما كنت تغلقين الباب كنت ترمين من وراء ذلك إلى نسيان الحجرة وآلامها ، ولكن الباب لم يكن ليقفل ، أو بعبارة أخرى لم تستطيعي أن تنسي الحجرة وآلامها . . »

وكانت لويس تنصت الى الطبيب بكل حسها . ولما انتهى من كلامه سألته « أأنت تعتقد إذاً أنني كنت متخيلة كل هذا ، أليس كذلك ؟ !!

ولكن الطبيب لم يجبها في الحال وإنما قال في حذر « لم تكن كل مخاوفك أوهاماً ولكن معظمها . . . » ثم رنت على كتفيها ونظر إليها مبتسماً « المهم يا لويس ، أنك كنت تملكين الشجاعة التي بها حطمت أوهامك . وكم أتمنى لو أن كثيراً من مرضاي البائسين يملكون هذه الشجاعة . . . »

وخرج الطبيب العظيم فاستلقت لويس على ظهرها وقد انتهت ، فالقاضي الكريم لم يحكم بادانتها .

... لكن هل من الممكن أن يكون هذا الباب رمزاً لخصب ؟ .. انها لتقفل عينيها فترى باباً طويلاً أبيض اللون ذا مقبض نحاسي أمضت سنيها هي ومابل ترعى لمعانه ونظافته ولقد ظلّ الباب مفتوحاً ، وكان وراءه .

... ولكن الآن كل شيء قد انتهى ولويس لا تشعر بوخز في ضميرها ، بل تنظر الى المستقبل بعين الأمل . ستقول لروي كل شيء ، ولكن ليس في هذا الظرف . بل عند ما يستعيدان صحتهما .

* * *

وفي مساء هذا اليوم أحضروا للويس زوجها وكان يجلس على كرسي ذي عجلات . . شعرت لويس أن الحائل بينها وبين روي قد زال الى الأبد ، وإنها لتنحني عليه بابتسامة امرأة أصيبت وقامت وضحت .. وأخذ روي يدني كرسيه بنفسه حتى لامس سرير لويس وكان يبدو نحيلاً جداً ، ولكن ثمة نور في وجهه قد عادت إليه نظرته القديمة الساحرة .

قال روي لممرضته « اخرجي الآن .. فانها زوجتي ولو كان في مقدوري أن أقف وأصل إليها ، فإني أحترق شوقاً إلى تقبيلها ... »

* * *

وكانت لويس تنظر وتبتسم ، كانت ابتسامتها تنطق بالحب وكانت أيضاً تنطق بالحنان . ماذا لو أن روي نسي ؟ . لقد فطر الرجال على نسيان الماضي ، أما النساء فيذكرن الماضي دائماً . الرجال يبنون بينهم وبين الماضي حاجزاً كثيفاً ، ولا يتنبهون حتى الى محاولتهم النسيان . والآن لقد استطاع روي أن يحيط لويس بذراعيه ، وها هو ذا يمسك بها بشدة وهو يردد :

« عزيزتي .. عزيزتي .. » لقد عاد روي القديم بعينه .

— عزيزتي ، يجب أن نخرج من هنا سريعاً فإن أمامنا أشياء كثيرة يجب عملها . وإني لآسف إذ أنهي إليك أنباء سيئة .

— أنباء سيئة ؟ .

— أجل : المنزل القديم قد ذهب أثراً بعد عين .

وكانت لويس تلاحظه باهتمام بالغ .

— إنك ولا شك ستفقد شيئاً كبيراً . يا روي ! أليس كذلك ؟ .

— أنا ؟ أبداً . يا للجحيم ، لقد كاد هذا المنزل أن يقتلك .

... المنزل ، وليست أمه ، التي كادت أن تقتلها — ولكن هذا لا يهم الآن .

لقد بدأ روي يبني لنفسه حاجزاً كثيفاً أمام الماضي ، ونساه الى الأبد »

— أجل يا عزيزي ، لقد كاد المنزل أن يقتلني .

ومال روي عليها وقبلها قبلة طويلة « إننا كلانا معاً الآن . يا للهي عند ما أخبرت بمرضك »

كم تراه قد علم من ذلك الماضي ؟ كم تراه قد علم من ذلك الصراع الطويل بين أمه وزوجته ؟ انها لن تعلم منه شيئاً لأنه قد نسي كل شيء . وانها أيضاً لن تذكر شيئاً عن الباب الكبير المهم الا أنه لن يفتح مرة ثانية .

فؤاد عرفان واصف
ليسانسيه في الآداب والفلسفة